الغزو الثقافى والتحديات الحضارية
رؤية نقدية

د. سامية الساعاتى *

« العباية العيارى ما تدفى وإن دفت ما تدوم »

«مثل شعبى مصرى»(١)

«إن الجيل الحالى من علماء الاجتماع فى الشرق الأوسط يجدون أنفسهم فى موقف يستوردون فيه أدوات تم تشكيلها وتطويرها لتناسب حاجات فترة الانتقال فى الثقافة الأوربية فى القرن التاسع عشر»(٢).

يمكن أن نختار لنقطة البداية فى أى بحث يتعلق بقضية كقضية الغزو الثقافى واحدا من مستويين :

(١) المستوى الوضعى التقليدى: المعمول به فى العلوم الاجتماعية والإنسانية الغربية المعاصرة، أى أن نبدأ بالتسليم بأن عملية الغزو الثقافى هى فى آن واحد ظاهرة طبيعية، لا مفر منها، من ناحية، ومن ناحية أخرى ظاهرة لابد وأن تتبدى بشكل أكثر حدة فى مجتمعات آسيا وافريقية وأمريكا اللاتينية فى عصرنا.

(٢) المستوى النقدى : أى أن نتساءل عن الجذور التاريخية لظهور فكرة الغز الثقافى. وكذلك ارتباط هذه الفكرة ببنيان الفلسفة الاجتماعية السائدة فى مجتمعات الغرب، ثم دراسة كيفية انتقال هذا الجو الفكرى إلى مجتمعاتنا.

* أستاذ ورئيس قسم الاجتماع بكلية البنات ـ جامعة عين شمس .

(١) العباءة المستعارة لا تدفى، وإن أدفأت فإن دفئها غير دائم .

(٢) عبد القادر زنفل. المدارس الفكرية العربية والهياكل الاجتماعية فى الشرق الأوسط «المستقبل العربى»، السنة ٢٤ العدد ٣٧ مارس آذار ١٩٨٢ ص٧ .

فإذا كان الهدف هو مسايرة تجارب مجتمعات أخرى فحسب، على اعتبار أن مجتمعاتنا لا يمكن أن تهدف إلى أبعد من تقليد الغير، فيكون الموقف الأول هوالمطلوب، بكل ما يترتب عليه من نتائج واختيارات أو قرارات تنفيذية..... الخ.

أما إذا كان الهدف هو تحقيق نهضة حضارية شاملة لمجتمعات أمتنا العربية، كما حدث أو مازال يحدث فى عدد من أمم الشرق المعاصر، فإنه يصبح لزاما علينا أن نختار الموقف الثانى النقدى. وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن هذا الموقف النقدى لاتمليه علينا فقط احتياجات تحركنا القومى، بل إنه فى الوقت ذاته يمثل فى الأساس الموقف العلمى المنهجى الأصيل، فالموقف العلمى يختلف اختلافا جذريا عن السلفية الفكرية وعن مجرد النقل والتقليد، وإنما هو يهدف دائماً إلى الإبداع ابتداء من النسيج الموضوعى للمجتمع، آخذا فى الاعتبار خصوصيته الثقافية.

مسلمات الغزو الثقافى:

يستطيع المرء أن يستقرء وراء ظاهرة الغزو الثقافى فى المجتمعات العربية خطا فكريا يجمع بين عدد محدود من المسلمات التى يندر أن تصاغ صراحة:

(١) أن ظاهرة التخلف الثقافى فى مجتمعاتنا العربية تمثل فى المحل الأول الوجه السالب لعملية جدلية تركيبية شاملة، تمثل فيها مجموعة المجتمعات النامية فى الغرب العنصر الإيجابى .

(٢) أن للتقدم صورة وحيدة وفضلى هى التى تتمثل فى ثقافة الغرب الرأسمالى. وبالتالى فإن أرقى درجات الحضارة البشرية هى حضارة الغرب. ومازال هذا التمركز الأوروبى حول الذات -Europeo centrism يحكم تصرفات القوم حتى الآن، ويجد لنفسه الشاهد الأخير فى الابتكارات التكنولوجية المذهلة (بغض النظر عن جدواها الحقيقية وآثارها السلبية).

(٣) أن للتقدم مسارا فريداً يتعين على كل الشعوب أن تسلكه، وأن تمر بالباب الضيق الذى اجتازته الثقافة الغربية، فالتخلف Underdevolopement ليس إلا مجرد تأخر Backwardness. وكأن الأمم جميعا قد وقفت يوما على خط البدء من ميدان سباق وأخذت تعدو حين دقت إشارة البدء فقطع بعضها الشوط بأكمله. وتعثر البعض في منتصفه، فى حين لم يتجاوز جهد البعض الثالث إذ إنها تسلم بإمكان وصول كل الأمم إلى ما وصلت إليه

أمم الغرب، ولكن طبيعتها الحقيقية تظهر إذا ما تساءلنا: ولماذا تأخرت أمم كثيرة؟ عندئذ يسوق البعض على استحياء أو بدون حياء تفسيرات لا تستند إلى أساس: تفسيرات جغرافية (مثل القول بأن ظروف البلاد الحارة تورث الكسل، وكأن تلك البلاد لم تكن بالدقة موطن الحضارات الأصيل)، أو دينية (مثل الزعم بأن الإسلام يعلم التواكل، وكأن الحضارة العربية الإسلامية لم تكن من أزهى حضارات التاريخ)، أو قيمية (كالقول بأن بعض القيم الثقافية تقتل الحافز الفردى، وكأن الثقافة مستحيلة بدون فردية متورمة) على أن الزعم بالمسار الفريد، ينافى التاريخ، وينكر قدرات البشر. فقديما ازدهرت حضارة مصر، وحضارة الصين فى خطوط متوازية ومختلفة دون صلة بين البلدين(١)

وهذا الزعم بعد كل ذلك وقبله، يفرض على مجتمعاتنا أن تركز كل جهودها على محاكاة الغرب، والنقل فيه، والاعتماد على خبرته وعلمه ورؤوس أمواله. وبهذا تتأكد تبعيتها له، وتقفل أبواب الإبداع، ويلجأ القادرون عليه إلى الغرب، ما تيسرت لهم السبل وغالبوا شعورهم القومى، والوطنى، وهكذا تظل شعوبنا تجرى وراء سراب لن تلحق به.

والغرب حين يمدنا بالعون يوصينا بالصبر وتحمل الآلام والمعاناة كما تحملت شعوبه ومجتمعاته فى العقود الأولى التى تلت الثورة الصناعية. وليس عجبا أن يكون ذلك مسلك الغرب. فغاية الكرم أن يعطى المرء مما عنده النذر اليسير أو القدر الكبير. ولكن العجب أن يسلم باحثونا ومفكرونا بنظرية المسار الفريد للثقافة بأن يرضوا لأنفسهم وشعوبهم بهدف القدرة على المحاكاة وهى فضيلة القرد، متخلين عن القدرة على الإبداع وهى فضيلة الإنسان.

(٤) أن هذا المسار يمكن اختصار أمد سلوكه بالتركيز مباشرة على اكتساب ثمراته المادية أخذا عن الغرب.

وهذا الاختصار مبني على اختزال ظاهرة التغير الاجتماعى فى الغرب لردها إلى أمر واحد هو الآلة وما يتصل بها من تكنولوجيا وما تؤدى إليه من إنتاج مادى متزايد واستهلاك مادى لا تهدأ له شهوة. وفى ضوء هذا الفهم يكون الخلط بين الثقافة

(١) للمزيد عن مفهومى الثقافة والحضارة :
انظر: سامية حسن الساعاتى، الثقافة والشخصية، بحث فى علم الاجتماع الثقافى، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٨٣ ط ٢، وأيضا مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٨٢ ط ١

فى شمولها وبين مظاهرها المادية (الحضارة)، ويكون الظن بأن الحصول على هذه الأخيرة وحدها هوالثقافة بعينها.

وقد ساقت هذه النظرة بعض المجتمعات العربية إلى الظن بأن التزين بالزى الأوروبى، والكتابة بالحروف اللاتينية، ونقل النظم والقوانين الأوروبية تكفى فى ذاتها لتحويل البلد إلى (قطعة من أوربا)، اعتقدت بعض مجتمعات عربية أخرى حبتها الطبيعة بمادة أولية مرتفعة الثمن ومصدر طاقة تشتد عليه طلب البلدان الصناعية أنهم ببيع هذه الموارد النافدة وإقامة المبانى الأوروبية، واستهلاك السلع الحديثة، وإقامة بعض المصانع، يقتربون من مستوى حضارة الغرب(١) المنشود.

وأخيرا تناضل بعض النظم العربية من أجل تعبئة الجهود الوطنية والاستعانة بما تيسر من موارد خارجية لإنجاز تصنيع سريع يدخل بشعوبهم عصر التكنولوجيا الحديثة، ومواكب الكومبيوتر، ثقة منهم بأن هذا هو فى ذاته التقدم الثقافى والتنمية الثقافية. ولكن الجهود المبذولة لا تصفى الفقر والأمية والمرض. ولا تحرر كل الطاقات الكامنة لدى الجماهير ولا تقطع حبال التبعية الخارجية.

التحديات الحضارية المعاصرة (٢): دروس مستفادة :

ليس القصد مما سبق طرح تجربة التطور الثقافى فى الغرب جانبا، والامتناع عن التماس دروس منها، وإنما بيان أن الفائدة تتحقق بتحليل عوامل التطور الثقافى، وفهم أبعادها الحقيقية، والبحث عما يقابلها فى المجتمعات الأخرى، وليس نقل نتائج التطور نقلا أعمى .

ويمكن أن نلقى الضوء بعد هذا العرض السريع للموضوع، على التحديات الحضارية المعاصرة، والمرتبطة بالدروس التى استفادوها من التجربة الغربية .

أولا : الغزو الثقافى عملية تضرب جذورها فى كل جوانب الحياة وتفضى إلى مولد ثقافة جديدة، أو مرحلة جديدة من

(١) يقصد بالغرب فى هذه الدراسة أوربا وامتداداتها الثقافية. وبغض النظر عن النظام الاجتماعى والاقتصادى فإن دول أوربا الاشتراكية تعد جزءا من الثقافة الأوروبية بالمعنى الواسع. وقادة الفكر الاشتراكى لم يزعموا أبدا دفن التراث بكل ما يحتوى، بل أكدوا دائما أنهم ورثة كل ما هو إيجابى فيه ومحرروه ومكملوه.

(٢) مفهوم المعاصرة : نعنى به السمات الثقافية بعناصرها المادية وغير المادية التى يتميز بها مجتمع من المجتمعات فى فترة معينة من الزمن تكون، بالضرورة، الفترة الحاضرة.

انظر سيد عويس حديث عن الثقافة ، مكتبة الأنجلو المصرية، . ١٩٧٠ .

مراحل التغير والتطور الثقافى، بكل ما يميزها من قيم، وعادات، وسلوك، وأساليب إنتاج، وأوضاع اجتماعية، ونظم سياسية، وتقدم علمى، وتجدد أدبى، وفنى .

ثانياً : للثقافة شقان : شق فكرى وآخر مادى، وكل منهما يغذى الآخر ويقوى حركته. فمناهج العلم ومكتشفاته خلقت جوا مواتيا للاختراع، ولكن تحويل الاختراعات إلى أدوات إنتاج تفسره ضروروات اقتصادية وقوى اجتماعية ذات مصلحة قوية ، كذلك استمرار البحث العلمى التطبيقى مرتبط بتطوير الإنتاج، الخ .

ثالثا: التنمية الثقافية لا تستعار، وإنما هى فى الأساس عملية إبداع، فأوربا قد درست علوم العرب وفلسفتهم وأحيت تراث الإغريق والرومان، مركزة الأضواء على جوانبه التى تساند تطلعات التطور. ثم تجاوزت هذا كله بإبداع مستمر فى كل محاولات الفكر والسياسة. وقبلها. فعل أسلافنا العرب، فقد أخذوا عن اليونان والرومان والهند ومصر والشام والعراق، وفارس. ولكنهم تجاوزوا ما أخذوا إلى إبداع ثقافة جديدة زاهية بقدر ما هى أصيلة .

رابعاً : مولد ثقافة جديدة، أو تجديد شباب ثقافة عريقة تضم حضارة عريقة بالطبع، هو جهد يفوق طاقات أى مجتمع عربى منفرد وإنما هو ظاهرة «قارية» من حيث الاتساع الجغرافى أو الإسهام البشرى. وهذا ما يؤكده تاريخ أوربا، فقد اسهمت شعوب القارة جميعا، وامتدادها الثقافى فى أمريكا الشمالية بالفكر والممارسة.

خامساً : المحتوى التقنى الاقتصادى للحضارة الغربية والذى يبهر الناس، ذلك هو الجزء المادى من الثقافة الأوربية، لم يكن متصورا بدون استيلاء الأوروبيين على موارد الشعوب الأخرى: الموارد الأرضية (أمريكا الشمالية واستراليا...) والموارد البشرية (الرقيق الأفريقى والعمل فى المناجم والمزارع فى المستعمرات)، والطبيعة (المواد الأولية والطاقة). أما الثورة الصناعية فى ذاتها فلا يكتفى بها لتفسير كل شىء. كذلك لا يحل التصنيع بذاته كل المعضلات.

الخلاصة :

خلاصة القول بالنسبة لقضية الغزو الثقافى وعلاقتها بالتحديات الحضارية المعاصرة، أن التنمية الثقافية، تعنى فى حالة العرب، حركة إحياء ثقافىَ للمجتمعات

العربية، ترد للمجتمع العربى قدرته على التجديد ذاتيا، وتفتح أمامه سبل الإبداع، ولا يتأتى هذا إلا بتحرير العقل العربى من السلفية المتحجرة التى ترفض الاجتهاد والتجديد.

كذلك يجب الاهتمام بتحرير العقل العربى كذلك من التبعية لكل أو معظم ما نتعلم من الدول الصناعية المتقدمة.

وتحرير الموارد العربية من صنوف السيطرة الخارجية والاستئثار الداخلى. وبهذا، وليس بأقل منه، يمكننا أن نصل إلى إسهام جديد فى الثقافة البشرية يأخذ عن الغير، ولكنه لا يكتفى بمحاكاتهم، ويبنى على أفضل ما فى التراث دون انغلاق عليه، أو انكفاء على الماضى، وعندئذ نقيم مجتمعات حديثة بكل معانى الحداثة لها ثقافتها الحديثة، لكنها بالضرورة مختلفة عن المجتمع الغربى وثقافته (١).

ولكن هذه المقاصد السامية التى يجب أن نقصدها تصطدم بالضرورة مع واقع أن العرب لا يعيشون فى فراغ، أحرارا فى اتخاذ ما يرون من قرارات، فالأقطار العربية شأنها فى ذلك شأن معظم البلدان النامية، موثقة بشبكة كثيفة من العلاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية التى تربطها بالدول الرأسمالية المتقدمة. ومن ثم فلا يمكن الحديث عن التنمية الثقافية والتكامل الثقافى أو الوحدة الثقافية بين الأقطار العربية إلا بعد تحديد واضح لموقع العرب من عالم اليوم.

فالسيطرة الغربية على سوق رأس المال تفسر حقيقة مرة وهى أن أقساط خدمة الدين الخارجى وعوائد الاستثمار الأجنبى وفروق أسعار المواد الأولية تجعل الدول النامية تحول إلى الدول الصناعية من الأموال أكثر بكثير مما تتلقى منها. وأخيرا هناك الغزو الثقافى والسيطرة الثقافية التى يمارسها الغرب من خلال نظم التعليم والإعلام والاتصال، فالتعليم الحديث منتشر فى المدن الصناعية فى حين مازالت غالبية الأقطار العربية تعانى من الأمية، والمتعلمون عندنا تلقوا العلم فى مدارس الغرب أو فى مدارس وجامعات تقلد النمط الغربى للتعليم فى عزلة تامة عن ثقافاتنا، وتاريخنا،

(١) انظر اسماعيل صبرى عبد الله، العرب بين التنمية القطرية والتنمية القومية، المستقبل العربى، العدد ٩، السنة ١٩٧٨ .
وانظر غالي شكرى، الشخصية الثقافية فى عالم متغير ، المستقبل العربى، عدد ١٢ ، ١٩٨٦ .

وقيمنا.

وتبلغ المأساة قمتها حين تهدر اللغة القومية (العربية) وتسود لغة أجنبية التعليم والبحث العلمى والعمل الحكومى.. بل والمعاملات العادية بين الناس.. ومحصلة ذلك كله هو انبهار الفئات العليا والمتعلمة فى مجتمعاتنا بالثقافة الغربية. وحرصها الشديد على تقليد الغرب فى كل شيء. واعتقادها الجازم بأن طريق التقدم الوحيد هو محاكاة الغرب. ومصادر الأخبار تحتكرها أربع وكالات أنباء غربية تختار ما تذيع، وما تحجب . والسينما والتلفزيون (لا سيما مع استخدام الأقمار الصناعية) تنقل القيم الثقافية، وأنماط السلوك. والصور الزاهية لحضارة الغرب حتى إلى الأميين فى أقصى القرى من البلدان العربية.

وهكذا نرى أن المجتمعات العربية لا تواجه روابط اقتصادية غير متكافئة فحسب. فأمور الاقتصاد هنا لا تنفصل عن قضايا الثقافة والاجتماع، والسياسة. فنحن إزاء نظام للعلاقات الدولية له قلب يسيطر ويمارس الفعل داخل المجتمعات العربية، وهذا النظام يشبه الأوضاع الفلكية من حيث أن الجرم الأثقل وزنا يخضع حركة الأجرام الأخرى لحركته ويجذبها حتى تأخذ مكانها فى فلكه وتدور حوله.

وليس المطلوب من عالم الاجتماع الابتعاد عن العمل السياسى، بل إن المطلوب الابتعاد عن العمل السياسى، كبديل للأبحاث الاجتماعية الميدانية طويلة المدى، فالقيام بالأبحاث الميدانية الدقيقة التى تلتزم بوصف الواقع المعقد هى وحدها الكفيلة بإثراء النظرة السياسية، وجعلها قابلة لتغيير الواقع المرير فى كل أوجه المجتمع العربى.

وعلى الباحثين الاجتماعيين العرب أن يعمموا ثقافتهم العربية والدولية حتى يتمكنوا من إجراء النقد اللازم حول المنهجيات التى يستخدمونها فى أعمالهم، وبالتالى حتى يتمكنوا من تكثيف هذه المنهجيات تكييفا جديدا وسليما لمعطيات الواقع العربى، وهذا يتطلب جهدا فكريا كبيرا. للتعويض عما فات الأبحاث الاجتماعية العربية منذ أكثر من ثلاثين عاما، من القيام بالأبحاث المنهجية النقدية. وعليهم أن يحتاطوا فى استخدام المقولات والنماذج الخاصة بالدول الغربية استخداما آليا، وأن يلتصقوا بالواقع المحلى من خلال نظر ثاقب يسمح بإدراك الواقع إدراكا شاملا وصحيحا.